الشيخوخة والاحتضار والموت: ظواهر مقموعة في كواليس المخيال الاجتماعي

المصطفى مرتبط

جامعة ابن طفيل– المغرب

تاريخ الإرسال:2023/10/29 تاريخ القبول:2024/03/19

الملخص: يسعى البحث إلى تقديم قراءة سوسيولوجية في قضايا الشيخوخة والاحتضار والموت وأزمة العزلة التي يعيشها الإنسان خلال الشيخوخة، التي تتسم بالعجز والضعف الجسدي والعقلي. يعرض الشروط الذاتية والموضوعية التي تتحكم في تمثل الإنسان لقضايا الشيخوخة والموت، انطلاقا من قراءة أهم التحليلات السوسيولوجية والإبستيمولوجية. يبرز أهمية فهم ملابسات الموت والاحتضار والشيخوخة في الزمن الراهن، بعد أن اتخذت صبغة كونية بفعل الكوارث والأوبئة والحروب، رغم التحسن الكبير في جودة الحياة وصحة العقل والجسد. يقترح شروطا للتخفيف من حدة فكرة الفناء بالاعتماد على براعات الإنسان في ابتكار الوسائل التي تربط بين عالم الأحياء وعالم الأموات، باعتماد الشعائر والطقوس والمعتقدات في تقبل حتمية الموت والشيخوخة.

الكلمات المفتاحية: حتمية الفناء، أزمة الشيخوخة، عزلة المحتضرين، معضلة الموت، المشهد الاجتماعي

Abstract: The research aims to provide a sociological perspective on the issues of aging, dying, and death, as well as the crisis of isolation experienced by individuals during old age, characterized by physical and mental frailty. It explores the self-imposed and objective conditions that govern human representation of aging and death, drawing from key sociological and epistemological analyses. The study emphasizes the importance of understanding the intricacies of death, dying, and aging in contemporary times, given their cosmic dimension influenced by disasters, pandemics, and wars, despite significant improvements in the quality of life and mental and physical health. It proposes conditions to

mitigate the severity of the concept of mortality by relying on human ingenuity in inventing means that bridge the gap between the world of the living and the dead.

Keywords: Inevitability of Demise, Aging Crisis, The Loneliness of the Dying, Dilemma of Death, Social Scene

مقدمة

تأتي الشيخوخة والموت كظواهر مرغمة من بين مراحل دورة الحياة الإنسانية، وهما معا يشكلان جوانب تستأثر باهتمامات مجالات الطب والسيكولوجيا والعلوم الاجتماعية، وتعرف الشيخوخة سوسيولوجيا على أنها مرحلة في حياة الإنسان، تأتي بعد مرور فترة طويلة من النضج، وتتسم بتغيرات حادة في الجسم والعقل والوظائف الحيوية، بفعل تأثير عدة عوامل: الوراثة، البيئة، النظام الغذائي، والنشاط البدني. وبالرغم من ذلك، ففي الغالب تصاحبها جملة من التحديات الصحية التي تظهر في صورة مشاكل تتضاعف كلما تقدم المسن في العمر، بحيث يصبح فريسة سهلة أمام الإصابة بالأمراض المزمنة، وتلاشي القوة العضلية والفيسيولوجية، والمشاكل العقلية والشعورية.

يحتاج المسن إلى رعاية طبية خاصة، وحاجته تصبح كبيرة إلى توفير خدمات الرعاية الصحية المناسبة والدعم الاجتماعي. يجري العديد من الباحثين دراسات حول مرحلة الشيخوخة لفهم آليات التقدم في العمر وتأثيرها على صحة الإنسان، وذلك بهدف تطوير استراتيجيات لتحسين جودة حياة الإنسان في هذه الفترة، وتأخيرها إلى أبعد الحدود.

أما الموت، الذي يأتي بعد أن تفقد جميع الأعضاء الجسدية والعقلية وظائفها، فهو يعني نهاية الحياة الفعلية، حيث يتوقف الجسم عن القيام بجميع الأنشطة الحيوية. يمكن أن يحدث الموت بفعل سبب أو جملة من الأسباب: قد تشمل الأمراض، والحوادث، والعوامل الوراثية، وقد يعزى إلى التقدم الطبيعي في العمر. لذلك، فالموت في المجال الثقافي يختلف من مجتمع إلى آخر، وقد تكون له تأثيرات كبيرة على الطريقة التي يتم بها تعامل الناس مع معضلة الموت والحداد،

ففي مجال الطب والأبحاث العلمية، تتنوع أساليب فهم أسبابه وآلياته، ومدى الرعاية التي كان يتلقاها الشخص في مراحله النهائية، فبعض الثقافات تشدد على أهمية التحضير للموت من خلال وضع الإرادات والتفكير في التخطيط للحدث، يترتب على الموت غالبا حالة من الحداد والفقدان، ويختلف التعامل مع هذه العواطف من شخص إلى آخر، وقد يكون الموت مصدرا للإلهام والتأمل، كما في بعض الثقافات والفلسفات، ويرتبط في الغالب بمعنى الحياة والوجود.

الشيخوخة والموت، إذن، هما جانبان لا يمكن تجاوزها أو تجنبها في التجربة الحياتية العادية للإنسان، ويتطلب فهمهما بحثا واهتماما على مستوى كلياني لتحسين جودة حياة الأفراد، وتطوير استراتيجيات الرعاية الصحية.

في سبيل فهم ملابسات قضايا الشيخوخة والموت، ينطلق هذا المقال من تفكيك قضية عزلة المحتضرين باعتبارها حتمية تسبق الفناء كظاهرة من الظواهر الاجتماعية الطبيعية، بحيث أصبحت العزلة والاحتضار خلال الشيخوخة إشكالات تثيرا جدلا واسعا في التحليلات الإبستيمولوجية والسيكولوجية والسوسيولوجية، وتركز على محورية قدرة وبراعة الإنسان في ابتكار جسر يربط بين عالم الأحياء وعالم الأموات، تدعمه جملة من الشعائر والطقوس، على اعتبار أن الموت أصبح يُنظر إليه اليوم في مخيال الإنسان على أنه يصيب الأفراد الآخرين أكثر من الذوات المفكرة فيه، خصوصا في زمن استشرت فيه الحروب والكوارث والأوبئة والأمراض الفتاكة، وفي الوقت الذي يطمئن فيه الأحياء إلى قمع فكرة الشيخوخة والموت بالاستمرار في التشبث بالحياة والاستمتاع بأكبر قدر ممكن من ملذاتها.

لقد تحدث باحثون كثر (نوبير إلياس، سبيل ميلر، كلير نانسي وغيرهم) بمنظورات منهجية متكاملة، حول حتميات الشيخوخة والموت باعتبارها قضايا سوسيولوجية تعصف بالإنسان في شكل جماعات وليس أفرادا معزولين، فرضتها تداعيات الجوائح والحروب والكوارث اليوم (الصين خلال جائحة كوفيد 19، حروب أوكرانيا، فلسطين، سوريا، ليبيا، اليمن، ...) فالباحث في هذه القضايا يجد نفسه أمام تجربة تقوم على إعادة تركيب أفكار النصوص العتيقة في سبيل إنتاج معرفة علمية أصيلة، قادرة على تفسير طبيعة الهلع والخوف من الموت اليوم.

يندرج هذا المقال أساسا ضمن حقل سوسيولوجيا الشيخوخة والاحتضار والموت، وأهميته تتجلى في الوقوف على تشخيص الأعراض الموضوعية لشيخوخة الجسد والموت وما يرتبط بهما من أسباب وملابسات، ليس من منظور طبي فيسيولوجي، وإنما تستهدف تقديم معرفة تربط بين التشخيص التقليدي والتشخيص الاجتماعي في سبيل إعادة تشريح قضايا الشيخوخة والموت، وكيفية تحولها من هوية حياتية طبيعية وعادية إلى معضلة مقموعة في كواليس المشهد الاجتماعي، وفي العلاقة بين المحتضرين والأحياء، وفي الشروط التي جعلت هذه العلاقة صنما مقبورا ضمن طابوهات المجتمع.

فالسؤال الإشكالي الذي نسعى إلى مقاربته في هذه الورقة يمكن صياغته على الشكل التالي: ما مدى مساهمة حتمية الشيخوخة والعزلة المترتبة عنها في فهم وتمثل حالة الاحتضار والموت الذي يليها في الزمن الراهن، في وقت يشهد ارتفاعا غير مسبوق في حدة الموت، وتحوله إلى ظاهرة كونية، بالرغم من التحسن الكبير في جودة الحياة والاهتمام بصحة العقل والجسد؟

ومن الإشكال السابق تتفرع الأسئلة التالية: كيف تأتي كل من العزلة والشيخوخة؟ ما هي الشروط والاعتبارات التي على أساسها يتم التعامل مع حتمية الشيخوخة والضعف؟ كيف يتم تقبل فكرة الموت؟ وما هي الملابسات التي تحيط بها؟ وهل الخوف من الموت يفرض مواجهته عبر قمعه في المخيال الاجتماعي؟ وهل معنى الوجود الموضوعي قادر على إخفاء الموت؟ إذا كان الموت وضعية طبيعة، فما الخطاطة الحضارية التي تفسر حتمية الموت بين الأمس واليوم؟ وكيف تمكنت الفردانية من إعادة تشكيل فكرة الموت؟

إن هدف هذا المقال يتمثل في الكشف عن الأسباب والعوامل التي بها تمكن الإنسان من إخفاء الموت وقمعه في المخيال الاجتماعي، واستنطاق حكم الصمت الذي يغلفه والاستبعاد الذي من خلاله يمكن مواجهة حتمية الفناء، ويبرز الجانب المظلم للفردانية المفرطة في ذاتيتها بمستوياتها المتقدمة اليوم، وفي شكل نظرتها للعزلة والموت والشيخوخة.

وعليه، فالمقال يقارب قضايا الشيخوخة والموت والاحتضار من خلال علاقتها بالتحولات التي تعرفها السلوكات الاجتماعية والنفسية للإنسان، وكيفية التخفيف من هاجس حتمية الفناء،

والمنطلقات والبراعات التي بها تمكن هذا الإنسان من خلق معنى لنفسه، بحيث يَعتَبرُ الشعائر والطقوس والمعتقدات هي التي بواسطتها يمكن فهم ظواهر الموت والاحتضار والشيخوخة والعزلة.

انطلاقا من المقدمات والأسئلة أعلاه يأتي تناولنا لهذا الموضوع وفق التوزيع المنطقي التالي:

الشيخوخة والتَّحَوُّل المرفوض

فكرة الموت وملابساتها

من الخوف من الموت إلى مواجهته

إخفاء الموت بمنح معنى للوجود الموضوعي

الموت بين الوضعية الطبيعة وحالة العنف

الخطاطة الحضارية في الموت بين الأمس واليوم

الفردانية وإعادة تشكيل فكرة الموت

تموقع في السياق: خيبة أمل العالم

أولا: الشيخوخة والتَّحَوُّل المرفوض

هل فعلا أصبحت التغيرات الفيسيولوجية والنفسية التي تأتي مع الشيخوخة خروج عن القاعدة الاجتماعية؟

يجيب نوربير إلياس على أن هذه التغيرات غالبا ما يُنظَر إليها من طرف الفئات العمرية الشابة على أنها خروج عن القاعدة الاجتماعية، لأن هذه الفئات لا تستشعر تجارب الشيخوخة، ولا تهتم بأبعاد التحولات الفيسيولوجية التي تلحق الجسد أثناء تقدمه في السن، وهو تحول قائم ومستمر في وضعية الفرد داخل المجتمع، حيث يصبح في حاجة إلى الرعاية الطبية المتكررة، بالرغم من محاولات مقاومة فكرة الشيخوخة وكظم المشاعر المتعلقة بمشاهدة الجسم الحيوي الشاب المفعم بالأحاسيس اللطيفة يتحول إلى جسم مترهل، مهلهل وضعيف. وهذا يحيل إلى عدم تماهي الفئة الشابة مع الشيوخ (المسنين)، لأنهم لا يشعرون بأنهم سيكونون يوما ما في وضع مثلهم، بفعل الانغماس في الملذات والاستمتاع بسلطة الشباب على الكبار، في الوقت الذي تبدأ فيه سلطة الشيخ تضعف كلما تقدم في السن، وتتسلل، دون أن يدري، إلى مجاله الخاص وضعية التبعية والخضوع، ويزداد الأمر سوءا عندما ينتاب الشيخ إحساس بالخوف على سلطته واستقلاليته.

وضعية الخوف هذه، إضافة إلى عدم ضبط النفس تدفع المسن إلى التواري خلف السلوكات الطفولية، للهروب من عوامل الانحلال الفيزيقي للجسد، ومن الهشاشة الاجتماعية المتنامية التي يبدأ في الشعور بها. ولتوضيح هذه المسألة، يعقد نوربير إلياس مقارنة بين أوضاع شيوخ القروسطية وأوضاع شيوخ المجتمعات الصناعية الحالية، ويستنتج أن هناك اختلافات جوهرية عديدة وواضحة بينهما. ففي المجتمعات الأولى: يظل المسنين تحت رعاية العائلة حتى اشتداد ضعفهم واحتضارهم، بل تستمر إلى ما بعد الموت في دائرة الأسرة، بغض النظر عن الاختلافات والصراعات التي قد تنشب بين الأفراد، وبالرغم من عدم تلقيهم دائما معاملة طيبة واهتمام لائق، لأن وصول الشباب للسلطة يؤدي في الغالب إلى سوء معاملة الكبار، أو إبداء قصوة شديدة تجاههم (مرجان، 2023، ص 110)، وهنا لا مجال للحديث عن دور الدولة ومسؤوليتها تجاه الأشخاص المسنين، وإن كانت المجتمعات الصناعية المتحضرة، حيث مؤسسات الدولة هي التي تتكفل بالمسنين، وتحميهم وتوفر لهم الأمن والطمأنينة من العنف الجسدي والنفسي الذي قد يمارس عليهم. يرجع نوربير إلياس الانتشار الكبير لمؤسسات استقبال المسنين بالمجتمعات المتقدمة إلى عزلة هؤلاء عن المجتمع عندما يضعف جسدهم، وتخر قواهم، وتتقلص دائرة علاقاتهم مع أصدقائهم، وتنهار روابطهم العاطفية، بغض النظر عما يحدث داخل هذه المؤسسات من تعايش بين أشخاص غرباء عن بعضهم، وإن كان تعايشا خاليا من الروابط الساخنة، نتيجة ضمور كثافة العلاقات العاطفية، مما يُحكَم على هؤلاء بالعزلة والوحدة.

قد يُلاحظ، وفي حالات معدودة، ذلك الجزء اليسير من الاهتمام في إطار الحياة الاجتماعية، الذي نادرا ما يُمنَحُ للمسنين، ويُعزى في الحقيقة إلى العمليات الطبيعية (الطبيعة العمياء) المفروضة قصرا على البشر، والتي لا يمكن السيطرة عليها. فالسؤال الذي يخيم على عقل المسن كلما تقدم به العمر وازدادت شيخوخته وعجز عن القيام بالعديد من الحركات، التي كانت تبدو في نظره عادية وبسيطة، هو فكرة الموت وملابساتها، ليصبح دائم التوتر والصراع النفسي حول قبول فكرة الموت، وكيف ستكون نهايته؟ وماذا بعد الموت؟ وهل هناك حياة أخرى بعده؟ وماذا عن الخطايا والذنوب؟ هل هناك عقاب وثواب؟ وهل هناك خلود؟ إلى غيرها من الأسئلة.

ثانيا: فكرة الموت وملابساتها

لفهم فكرة الموت، ننطلق من تفكيك وفهم الشكل القديم للموت (VOVELLE Micheal, 1982- 1985)، و(DEREGNAUCOURT Jean-Pierre, 2004)، وكيفية تصور البقاء بعده، سواء من خلال دفع هذه الفكرة، أو من خلال تقبلها بفكرة الخلود، إما في الجنة وإما في الجحيم، وهي تصورات سائدة في مختلف الثقافات حول قبول فكرة الموت ونهاية الإنسان، وأن هذه النهاية ليست مرتبطة بلحظة آنية، بل تبتدئ منذ أن يفقد الشخص الرغبة في التواصل البشري، وانطفاء شعلة العاطفة، وبالضبط، عندما ينعزل الفرد أو بالأحرى يتم عزله عن الجميع في لحظاته الأخيرة، وهو ما يعبر عنه بالإقصاء الصامت للمسنين من جماعة الأحياء (مرجان محمد، 2023، ص 12)، حيث أن هذا السلوك المرتبط بالعزلة والاحتضار يطغى في المجتمعات المتقدمة بدرجة كبيرة.

لكي تتوضح هذه الفكرة، يعود نوربير إلياس إلى الماضي السحيق، حيث كان الموت والصراع داخل الحلبات من أجل البقاء يعد ترفيها في أوقات الفراغ، والمحتضرون منهم لا ينتظرون النجدة سوى من الأشخاص الآخرين في وضع مشابه لهم، وأن القياصرة الذين يشرفون على هذه الفرجة كانوا يعتقدون بأنهم خالدون كالآلهة، وهذا الاعتقاد جعل من الموت مشكلة اجتماعية يصعب السيطرة عليها، بسبب صعوبة تماهي الأحياء مع الأموات، لتنتقل قضية الموت وتصبح مشكلة تتعلق بالأحياء فقط، لأنهم الوحيدون القادرون على إدراك لحظة الاحتضار، والتنبؤ باقتراب لحظة الموت أو حصوله. هذه الحتمية هي الدافع وراء استعداد الأحياء لأخذ التدابير اللازمة للحفاظ على حياتهم. كذلك في فترات الأوبئة والجوائح التي تشهد موتا جماعيا، فقد تكفلت الجماعات البشرية بضمان حماية حيوات الأشخاص، ودفع الموت عنهم من خلال تحقيق التهدئة في الداخل، ومواجهة التهديد الآتي من الخارج.

أما في العصر الحاضر، الذي تسمو فيه الحياة إلى البقاء والتمسك بالنمط العصري القائم على الرفاه والاستمتاع بالملذات إلى أقصى الحدود، قد خلق أكبر قدر ممكن من فرص السعادة، وهي التي كانت وراء تشكيل المجموعات الإنسانية بصيغها الحالية، ومن ضمنها تكيف الفرد مع حياة

الجماعة وفق سلوك وإطار محدد، منه ما هو مكتسب ومنه ما هو غير مكتسب، وفق الاختلافات الدنيا في السلوك الفطري، وهذا ما جعل تجربة الموت مختلفة من مجتمع لآخر الآن، لأن المشكلة تتعدى الموت نفسه، لتنتقل إلى المعرفة حوله وحول إدراك أبعاده وما ورائياته، عكس الكائن الحيواني الذي لا يصمد كثيرا أثناء الدفاع عن نفسه، لأنه لا يفهم ولا يدرك معنى الموت، وماذا ينتظر الميت، بالرغم من إحساسه الفطري بالخطر الذي يتهدده.

مشكلة الموت هذه، تجد حلا لها في الاعتقاد الراسخ بأن الموت ليس هو النهاية، بل مرحلة انتقالية إلى حياة أبدية بعد الفناء، تضمنها الشعائر والطقوس المرافقة لحالة الموت، والمضمرات المضروبة حوله، بالرغم من أن هذه الأخيرة قد تتزعزع، بل وتتضاءل كثيرا في المجتمعات المتقدمة، حتى وإن كانت الحروب والصراعات بين الجماعات الإنسانية لاتزال مستمرة إلى اليوم، مما قلَّل من شغف الأفراد بتفسير الموت اعتمادا على المعتقدات الميتافيزيقية، فمالوا إلى الأخذ بالمعتقدات الملموسة (مرجان محمد، 2023، ص 19)، نتيجة عدم تمسكهم وحصولهم على ضمانات ضد فنائهم.

إنسان اليوم، ومن خلال الأمان والاطمئنان الذي أصبح ينعم به، أضحى محصنا في الغالب من تهديدات الأمراض، وأشكال الموت الفجائي من خلال قوة التنبؤ، وحجم مراقبة المشاعر التي يمتلكها. ما يؤكد ذلك، هو أمد الحياة الذي انتقل فيه متوسط عمر الإنسان من 37 سنة في القروسطية إلى 75 سنة في العصر الحالي، يعزى تضاعف هذا الأمد في العقود الأخيرة إلى التطور الكبير في الوقاية والتطبيب والاستشفاء، وانتشار الأمن والسلم العالميين، إلا فيما يتعلق بنوبات فجائية من مخاطر وكوارث غير متوقعة.

لفهم موقف الإنسان حول مسألة الموت بدقة، وكيف أنه قد أصبح مؤجلا، بل ومقموعا على المستوى الجماعي كما الفردي في ركن النسيان، فإن ذلك قد تم من خلال ربطه بكل من الأمن الاجتماعي وإمكانية التنبؤ بطبيعة حياة الفرد.

إن تضاعُفُ أمد الحياة، يعزى –في جانب منه– إلى تعزيز أشكال الإيمان بالعالم الآخر بعد الموت، وإلى مسألة تقبل ضربات القدر المفاجئة، التي يصعب توقعها أو التنبؤ بها، كالكوارث

الطبيعية والجوائح، وهذا الإيمان يكون هائلا عند الفئات الاجتماعية الضعيفة في شكل سيطرتها على أوضاعها الوجودية (مرجان محمد، 2023، ص 20)، عكس المجتمعات المتقدمة التي تعرف نسب وفيات كبيرة، بفعل ضعف وسائل الحماية الميتافيزيقية، وانعدام الأمن الاجتماعي، وارتفاع منسوب الخوف من الموت.

ثالثا: من الخوف من الموت إلى مواجهته

يستطيع بعض الأفراد مواجهة الموت، في حين يهابه آخرون، يعود الفارق بينهما إلى أساليب التنشئة الاجتماعية، وتجارب الطفولة، وآليات الدفاع المكتسبة اجتماعيا، لأن هذه التجارب، إن كانت تشعر الفرد بالذنب والقلق نتيجة الصراعات والنزاعات الدفينة المرتبطة بالطفولة المبكرة (مرجان محمد، 2023، ص 22)، فهي نفسها التي تساهم في معرفة طريقة موت الشخص في المستقبل.

الخوف من الموت يتلاشى ويضمر إن تمت مواجهته بفكرة الخلود، وإمكانية التغلب على مخاوف الطفولة، فالضعف الذي يخيم على الشخص عند اقترابه من الميت، يفسح المجال أمام الخوف من الموت للظهور بشكل واضح، فيمنع الخوف من تقديم المساعدة أو منح العاطفة للمحتضر، وهنا يظهر الموت بالتحديد للأحياء، فينتبهون له. ثم إن مشاهدة الشخص المحتضر غالبا ما تزعزع أركان الحصن الذي شكله الشخص الحي حول تأجيل فكرة الموت، اعتقادا منه أنه يصيب الآخر ولا يصيبه هو، ويرسخ في ذهنه أن هناك حياة خالدة بعد الموت، وأن هناك إمكانية لعودة الموتى (SCHMITT Jean-claude, Gallimard,1994.)، وترتبط بفكرة الخلود بعد الموت مسألة الشعور بالذنب عند ارتكاب الخطيئة، فالاعتقاد بأن كل ميت مخطئ سوف ينال عاقبه، قد رسخ كثيرا الخوف من الموت، وحتى يمكن للناس تحمل حتمية الموت والعقاب بطريقة أفضل، ومواجهة الأوهام المرتبطة بهما، كان لا بد من تجريد الفرد من مشاعر الذنب انطلاقا من مواجهة أوهام العقاب بعد الموت ومسألة الخطيئة.

في جواب حول كيفية التجرد من الذنب هذا، يرى نوربير إلياس أن ذلك ممكن إذا أدركنا خصوصية السلوك الاجتماعي تجاه الموت، وقمنا بإدماج التغيير الذي يطرأ على هذا السلوك في

الإطار النظري العام والأوسع، الذي يجعله قابلا للتفسير (مرجان محمد، 2023، ص 25)، إلا أنه يشترط لذلك حدوث طفرة حضارية تهم كل مناحي الحياة الإنسانية، وتؤدي بالضرورة إلى مخاطر تلحق بالجماعة الإنسانية، ومعها الحياة الفردية الخاصة، بحيث تقوم على قواعد أساسية: قسم منها اجتماعي، وآخر أخلاقي. يظهر هذا بوضوح في كواليس الحياة الاجتماعية للحضارة الأوربية (مرجان محمد، 2023، ص 25)، في اللحظة التي يتحول فيها الموت من واقعة اجتماعية، يُقذف به خلف هذه الكواليس إلى إطار العزلة والإقصاء للمحتضرين.

إن الاحتضار ثم الموت في الفترة القروسطية كان يتم بكل سكينة وهدوء، وأن الإنسان كان ينتظر الموت بطريقة مريحة، حسب ما دافع عنه "Ariès Philippe" في كتابه "دراسة حول تاريخ الموت في الغرب"، بمعنى أن الموت لم يكن مخيفا في الماضي، وهو موقف متعارض مع معنى الموت الآن، الذي أصبح مخيفا لدرجة لا يمكن ذكره، ويطلق Ariès على هذا النمط من الموت بـ "الموت المدجن أو الأليف"، بالرغم من أنه كان مرفقا بالآلام والمعاناة، بفعل ضعف إمكانيات تخفيف وتبسيط ألم الاحتضار. أما في الوقت الحاضر، وبالرغم من تقدم العلوم الطبية إلا أن العجز لا زال قائما ومستمرا عن توفير موت مريح للمحتضر، حتى وإن مُنح بعض الأشخاص الذين يعانون من آلام فظيعة موتا رحيما وهادئا.

فالخوف من الموت ليس دائما في نفس المستوى الاجتماعي، فقد تضاعف الآن، مع تنامي المدن، وانتشار الحروب وموجات الطواعين والأوبئة والكوارث، التي حصدت الملايين من البشر، وهنا تكلم Ariès عن تدخل الكنيسة وبراعتها في نشر مشاعر الخوف من الموت، وما ينتظر الموتى المذنبين بعد رحيلهم. يصرح بإن الهيئات الدينية أصبحت غير قادرة على فرض قوانينها، من خلال التخويف بالنار بعد الموت، لذلك، فإن مشاركة الأحياء للمحتضرين في لحظاتهم الأخيرة، من أجل منحهم العاطفة والعون ظلت خافتة وجد ضعيفة.

مثلا، في مقابلة لنوربير إلياس مع صحافي شاب سأله عن الدوافع من وراء تأليف كتاب "عزلة المحتضرين"، يؤكد المفكر جازما، منذ البداية، بأن الخوف من الموت وآلامه هو الذي دفع الصحافي إلى طرح هذا السؤال، ثم يجبه، ثانيا، بأن الدافع كان البحث في الأوضاع التي دفعت

بالموت والاحتضار إلى خلف كواليس الحياة الاجتماعية الطبيعية، ليعلن بعد ذلك بأن الموت صار الآن وحيدا وصامتا ونظيفا.

رابعا: إخفاء الموت بمنح معنى للوجود الموضوعي

هل وجود الموتى يكون فقط في ذاكرة الأحياء؟ أم أن الأمر يتعدى ذلك إلى وجود آخر؟

يجيب نوربير إلياس بأن الموتى يوجدون في ذاكرة الأحياء من خلال إنتاجاتهم وما حققوه من إنجازات، فالخوف من الموت مرتبط بضياع هذه الإنتاجات، التي تمنح معنى لوجودهم، فاستمرار وجود الميت يكون فقط في ذاكرة الأحياء، بحيث يعتمد الناس على بعضهم البعض بواسطة معاني الأفعال، وما تمثله بالنسبة للآخرين، وتبدو الحياة مختزلة في البحث عن معنى للذات (مرجان محمد، 2023، ص 56)، خصوصا إذا كان الموت واقعا حتميا لا يمكن تجنبه. لذلك، فقمع هذه الحقيقة التي لا هروب منها، يتم بواسطة المتع والأفراح والابتهاج، وبالصورة المثالية التي كونها الإنسان –عبر صيرورة الزمن– حول وجود حياة خالدة بعالم آخر.

لتوضيح هذه الفكرة، يستعير نوربير إلياس مسألة الجنس، ويضع الموت والجنس في مستوى واحدا، معطيان بيولوجيان يعُدُّهُما المجتمع من الطابوهات المحظور الحديث عنهما، أو الخوض فيهما. ينطلق أولا من تفكيك السرية المضروبة على الجنس قديما، حيث يوضح أسباب عدم الاعتراف بأنماط السلوك الاجتماعي في المسائل الجنسية، والتخفيف الذي طال هذه السرية الآن، وكيف تم التخلي عن هذا التكتم والإخفاء بمناقشتها مع الأطفال بواقعية وصراحة، وانعكاساتها على نفسية ومشاعر الأطفال فيما بعد، بمعنى أن الالتزام الاجتماعي الصارم الذي كان سائدا قديما حول إخفاء المسائل الجنسية، هو السبب وراء الأزمات وكثرة الصراعات والعواطف الحادة لدى الشباب، وأن الانفتاح الحاصل اليوم في الحديث عن الجنس، عمل على كسر السر المحيط بالمجال الجنسي، مما غير من الوعي الشخصي للأفراد والممارسات الاجتماعية.

على شاكلة تحليل قضية الجنس، يشرح نوربير إلياس مسألة إخفاء الموت، وأن القمع الاجتماعي الذي يُوجَّه إلى الموت والاحتضار، هو نفسه المُوَجَّه إلى الجنس، وإن كان أقل صرامة (مرجان

محمد، 2023، ص 70)، فهما معا (الموت والجنس) يشكلان خطورة كبيرة على الأفراد، فالموت ليس هو السبب في زرع الخوف والرعب في النفوس، وإنما تمثل الموت في وعي الأحياء هو السبب، ثم إن تغلغله بقوة في وعي الأفراد يرتبط –في الواقع– بأمد الحياة، فكلما كان هذا الأخير كبيرا، كلما كان الموت مستبعدا، أي يمكن نسيانه، ويظهر هذا في المجتمعات المتقدمة التي لها حظ وافر من الأمن الاجتماعي، المتقدمة في التطبيب والأدوية والوقاية والنظافة والنظام الغذائي الجيد، ووثائق التأمين على الحياة، والنسبة العالية من التهدئة الداخلية.

فعدم الشعور بالأمان، يأتي نتيجة الجهل بالواقع، مما يسبب القلق والتوتر، ولتجاوز هذه الوضعية، يخلق الإنسان معرفة خيالية. يمكن تفسير هذه الحالة حسب نوربير إلياس، بسعي الناس في القديم –ونفس الشيء في بعض المجتمعات الثالثية اليوم– إلى مواجهة الأوبئة والجوائح والكوارث باستعمال التمائم والقرابين، وأعمال المشعوذين والسحرة (مرجان محمد، 2023، ص 113)، ما يؤكد هذه المسألة هو محاولة بعض المصابين حاليا بمرض مزمن شارفوا به على الموت إلقاء اللوم على الآخرين، أو اعتبار ذلك عقابا لهم على خطايا أو آثام ارتكبوها سابقا.

خامسا: الموت بين الوضعية الطبيعة وحالة العنف

من مواقف الأفراد تتشكل رؤيتهم حول الموت، بين الموت الهادئ السلمي فوق السرير، والذي يحدث غالبا في حضرة أفراد الأسرة، ويكون بسبب مرض معين، أو علة الشيخوخة: الحالة الطبيعية، والموت على يد الآخرين: حالة الموت العنيف، الذي يعد استثناء ويدخل ضمن الجرائم، لذلك، يدعو نوربير إلياس إلى ضرورة توفير الحماية للأشخاص، لأنه يرى بأن الموت العنيف لا ينتج عن العقل البشري، بل ينتج عن التنظيم الاجتماعي السائد بالمجتمع، وعن احتكار العنف الجسدي من طرف الجماعات المعنية بالمراقبة والحماية (الشرطة والجيش ...)، ويتولد عن احتكار هذا العنف، تَحكُّم نسبيا في العواطف والانفعالات، هذا على الأقل في المجتمعات المتقدمة، أما في باقي المجتمعات الأخرى فإن احتكار العنف الجسدي يعتبر من

الأمور العادية في الحياة الاجتماعية، حيث تنتشر فكرة الموت بفعل الصراع الدامي والمستمر مع الآخرين.

الموت في المجتمعات غير المتقدمة أمر مسلم به، فتتأثر بنية الشخصية للأفراد بخصائص البنية الاجتماعية التي تكونت من خلالها عملية اجتماعية طويلة (مرجان محمد، 2023، ص 78)، فيعتقد هؤلاء أن الصراع لا حل له إلا بالقتال العنيف المؤدي إلى موت الخصم، أو التضحية ببعض الأفراد إن تطلب الأمر ذلك، وهنا نتحدث عن التحول النفسي، وفي الموقف من الموت، أي الانتقال من وضعية تمنع الاقتتال بفعل الخوف من العقوبات القانونية الصارمة، إلى وضعية تسمح للدولة (الشرطة، الجيش،...) من الانفراد بممارسة القتل، بل يتعدى ذلك، فيصبح هذا القتل مطلوبا ومعلنا بشكل رسمي، وناتج عن هشاشة الضمير المشبع بفكرة القتل، تتأكد هذه الفكرة بشكل واضح في أوقات الحروب، وفي معسكرات الاعتقال، وأثناء تنفيذ عمليات الإبادة الجماعية، حيث ظلت بنية الوعي الفردي تحت رحمة الضغط الممارس من طرف سلطة الدولة.

فالموت ليس رهيبا إلى هذا الحد، وإنما ما يجعله رهيبا، هي تلك الأوهام الفردية والجماعية التي تحيط بالناس، والتي تجعلهم يعيشون في رعب دائم من الموت، فمشاهدة موت شاب قبل الاستمتاع بشبابه ومسرات الحياة، أو موت جماعات الجياع أطفالا ونساء وشيوخا وهم ينتظرون الطعام في بلد منكوب، أو موت الأطفال في الحروب، لمن الفظائع التي تزيد من رهابة الموت، لذا ينبغي تبديد هذه المخاوف بترسيخ الحقيقة البسيطة لنهاية الحياة.

سادسا: الخطاطة الحضارية في الموت بين الأمس واليوم

لم يدرك الإنسان أن الأمراض المعدية تشكل مشكلة حقيقية تهدد حياته إلا مؤخرا، ومع التقدم، حقق انتصارات نسبية عليها، من خلال مراقبة وإيجاد تفسير للمشاكل المرتبطة بها، لأن الاحتضار كان يعتبر مسألة علنية ومألوفة، أما خصوصية الموت فتجد تفسيرها في الهالة المضروبة عليه من طرف الكبار، الذين يتحاشون تفسيره للأطفال الصغار، وهنا تطفو فكرة قمع الموت على المستوى الجماعي كما الفردي. يعتقد نوبير إلياس أن الخطر الحقيقي على الأطفال اليوم، هو عدم فهمهم لظاهرة الموت، فالصعوبة ليست في قول الحقيقة المرتبطة به، بل في

طريقة قولها، أي التخوف من نقل الخوف الذي يسيطر على الكبار إلى الصغار عبر تفسير هذه الحقيقة البيولوجية والطبيعية، وهي السمة المحددة للخطاطة الحضارية السائدة المطبوعة بالقلق والانزعاج، الذي يشعر به الأحياء في حضرة المحتضر، فيشعر هو الآخر بأنه متخلى عنه، عكس ما كان حاصلا بالنسبة للأطفال قديما أو الأطفال الناجين من الحروب والمجاعات، الذين كانوا يشاهدون المحتضرين يموتون، والجثث المتعفنة تنقل إلى المستودعات والقبور، مما قوى لديهم عزيمة تقبل فكرة الموت.

إن الخطاطة الحضارية اليوم، توحي بتغيير المعادلة الطقوسية، ومجموعة النماذج الأخلاقية التقليدية، بحيث تجعل الشباب عاجزا عن التعبير عن مشاعره، وفي حالات عديدة، يمتنع عن التعبير عنها، لأن التقليد الاجتماعي الحالي، ببساطة، لا يوفر له أنماط السلوك والتعابير للتعاطف والمشاركة في مواقف الاحتضار أو الموت (مرجان محمد، 2023، ص 43)، فهي تبدو في نظره مستهلكة ومريبة، بل ومزعجة نسبيا، كما أن الطابع الفرداني للوضعية الحضارية لا يسعف الأفراد في إبداء التعاطف والانفعالات، لذلك، فهم في حاجة إلى ضغط شديد، حتى يخترقوا جدار الممانعة المهيمن على عواطفهم وتعبيراتهم من خلال التنشئة على حرية التخاطب والتواصل مع المحتضرين، بالرغم من الطابوهات التي تشكلها الاعتقادات والممارسات السحرية والأسرار المحيطة بالاحتضار، والكلام أو الضحك في حضور الموتى، بحيث تحول دون إظهار العواطف في مثل هذه المناسبات.

إن الصيغ الطقوسية، والأحاسيس والسلوكيات المعبرة عن المشاعر في المجتمع القديم، كانت ناجحة في تكييف الفرد مع المواقف الحرجة، وهي الحصن الواقي للحي من كومة الأوضاع المقلقة والمتكررة في الحياة، وهي بالنسبة للمحتضر السند والتعاطف، والأمل والصدق والثقة. أما اليوم، خصوصا في العالم المتقدم، فلم يعد هناك اهتمام بهذه الطقوس والمشاعر والسلوكيات، وحتى إن برزت في بعض الحالات، فهي لا زالت مطبوعة بصيغ تقليدية من الماضي البعيد.

التغيرات الحاصلة في الخطاطة الحضارية اليوم، أوصلت المحتضر، خصوصا في المؤسسات الاستشفائية، إلى العزلة التامة والصمت المطلق، بالرغم من شكلها الاجتماعي الجاف من

المشاعر، والخالي من العواطف، فصمت الأحياء أمام المحتضرين يمتد حتى إلى كيفية التعامل مع جثة الميت، وشروط اختيار القبر، وطريقة الدفن، هذا الصمت هو السبب من وراء توكيل مختصين مأجورين للقيام بهذه المهام، حتى أصبحت هذه الأعمال مهنة قائمة بذاتها لها قواعدها، وهو ما شكل نقطة تحول كبرى في جمود العواطف والمشاعر لدى الأحياء.

فبعد أن صدر كتاب عمال المقابر الذي يحذر من تبخيس مهامهم، بدعم من شركات التسويق، هُدمَت الصورة النمطية التقليدية للقبور كمكان لإبداء الأحاسيس العاطفية، والتعابير السلوكية التضامنية بين الحي والميت، وكفضاء أخضر للتأمل وللثقافة والتقليد (مرجان محمد، 2023، ص 51). يتفق نوربير إلياس مع القيمين على المدافن حول رغبتهم الشديدة في تحويل هذه الفضاءات إلى حدائق مخصصة للعيش المشترك، وفضاء للسلام، وجنة مزهرة بالورود، يمكن اللجوء إليها عند اشداد ضجيج الحياة اليومية. بل يصر على أن هذا الأمر كان ممكنا في الماضي، أما اليوم فيصعب ذلك، لسبب بسيط، أن الأحياء، الآن، قد كونوا حواجز بينهم وبين الموتى وتظهر في طريقة التعامل مع الموت، ومراسيم الدفن والجنازة، والصمت في حضور الموتى والمحتضرين، وبالتالي تم إبعاد الموت وما يحيط به قدر الإمكان خلف كواليس الحياة العادية، حماية لذواتهم من التهديد، وكوسيلة لتعزيز قوتهم وقدراتهم على مواجهة الموت فيما بعد.

هناك من الأطباء من يرى في تواصل المحتضرين في لحظاتهم الأخيرة مع أفراد عائلاتهم الذين يعانون من مرض مزمن، يمكن أن يشكل خطورة على هؤلاء المرضى، ويقلل من فرصهم في العلاج العقلاني، ويصبح مصدر إزعاج للطاقم الطبي والممرضين، بل ويقلل من الرعاية الصحية الممنوحة للمريض، لذلك، في الدول التي لها حظ وافر من التطبيب، والأكثر تقدما من الناحية الاستشفائية العلمية، يُمنع أو يُقلل من الزيارات بمؤسسات الاستشفاء والرعاية الطبية، وهذه الدعوة نادى بها كل من كلاسير وآل ستروس في كتابهما "زمن الموت" (B.G Glaser – Al Strauss، 1968، ص 151).

أما في البلدان الأقل تقدما فتفرض العادات والتقاليد أن تكون العناية بالمرضى في فترة ما بعد التدخلات العلاجية، وبالمحتضر أثناء لحظاته الأخيرة من طرف أفراد عائلتهم، وبذلك ينعم

المريض بالتنفيس عن أحزانه وآلامه، ويحظى المحتضر بموت مريح، لأنه يشعر بالسعادة في عناية الأصدقاء والأحباب، وهي آخر سعادة يمكن أن يحس بها، ويمكنها أن تؤخر وفاته قليلا. في البلدان المتقدمة الوضع مختلف تماما، حيث يُترك المحتضر تحت رحمة طاقم المستشفى لتهدئة محنته، التي عززتها مشاعر النفور والكراهية تجاه الموت.

سابعا: الفردانية وإعادة تشكيل فكرة الموت

تظهر الفردانية والذاتية بشكل جلي في المجتمعات المتقدمة، وتحيل على استقلال الفرد كجوهر خالص (يستعير نوربير إلياس هذا مفهوم الفرد الجوهر الخالص المتفرد من فلسفة لايبنتز)، وذات معزولة في تعارض مع العالم كله، وهنا يتضح الحاجز الذي ينشأ بين العالم الداخلي للفرد، والعالم الخارجي بباقي أفراده ومكوناته. الفردانية في أسمى صورها أصبحت السمة الحضارية الآن، أي العيش للذات وفي الذات، يعتبرها نوربير إلياس موت مسبق للفرد، وهي عزلة واحتضار، حيث الحياة البشرية هي حياة فرد وحيد منغلق على العالم، قد يجد في عزلته معنى لنفسه.

العيش في عزلة تعني الموت على هذا النحو، وتعني غياب المعنى للفرد، لأن العيش المشترك القائم على التعاضد والتواصل هو الذي يمنح المعنى للفرد، لأنه مستمد من المعنى الجماعي المحدد للشخصية الاجتماعية، فيشعر الشخص بمعناه من خلال ما يمنحه له الآخر من معاني حول حياته، أو أثناء تواصلهما اللغوي والرمزي والتعبيري، وهو ما يمنح معنى كذلك، لحياة الجماعة التي ينتميان معا إليها.

الفردانية إذن، هي صورة مشوهة للإنسان حول ذاته (مرجان محمد، 2023، ص 87)، لأنها تعكس مشاعر الوحدة والعزلة والفراغ العاطفي، وهي تحيل على بنية الشخصية في المجتمعات المتقدمة، التي ترعرعت في أحضان مراقبة الذات، وهذا ما يجعل العزلة متجذرة في شخصية المحتضر، يعترف نوربير إلياس بأن هذه الفردانية تتغير حسب الشرائح الاجتماعية والجنس والجيل. لذلك، في المجتمعات التي يسميها "منضبطة"، يحتاج العيش المشترك إلى تعديل المشاعر المتوحشة للأفراد بواسطة مراقبة الدوافع المتفجرة، للحفاظ على السمات المشتركة لبنية

الشخصية، لأنها هي التي تبقى بعد الاختلافات المميزة للفئة الاجتماعية، وحتى نلمسها بوضوح، وجب مقارنتها مع مجتمعات في مرحلة سابقة من الحضارة.

إن فردانية الشخص المفرط في ذاتيته، ومستوى التحكم في المشاعر العاطفية والدوافع الغريزية، تميل بصاحبها نحو الانعزال، وهو ميل مماثل للذي نلاحظه عند الشخص المحتضر. أي بالفردانية تلك، نستطيع فهم الموت وتمثلاته –على الأقل– في المجتمعات المتقدمة، حيث يموت المحتضر وحيدا، وهذا يحيل على أن الفرد كان يعيش وحيدا في حياته.

بعد هذا المستوى المتقدم من التحليل، نصل إلى نتيجة حاسمة، أن الموت الشخصي يرتبط بقوة بصورة الذات وحياة الشخص وطريقة عيشه (مرجان محمد، 2023، ص 92)، تفند هذه النتيجة خلاصة القصة المشهورة "سادة وعبيد" للأديب الروسي Léo Tolstoy، التي تروي مقارنة بين أسلوب موت التاجر وأسلوب موت خادمه، عندما خرجا في صفقة لشراء الخشب، واشتدت بهما عاصفة ثلجية فحاصرتهما في حفرة غطاها الثلج، فالتاجر الذي يرى معنى لحياته ظل نشيطا حتى نهايته، أما الخادم فقد قبل الموت بلطف بدون مقاومة، لأنه لم يعش الكثير من اللحظات السعيدة في حياته. المثير في القصة أن التاجر عندما أدرك اقتراب موت خادمه، ألقى بنفسه عليه وغطاه بفروه لتدفئته، ثم نام ليموت مجمدا. تحيل القصة إلى أن طريقة العيش هي التي تحدد طريقة الموت، والحياة التي لها قيمة لها معنى، وهي التي تقتضي البقاء، لأن لها هدف يجب تحقيقه.

يمكن القول بأن المحتضر في لحظاته الأخيرة، يشعر بأن حياته كانت لها معنى أو العكس، وبالتالي فالموت يكون أسهل لصاحب الحياة الخالية من المعنى، أما من كانت حياته مملوءة بالأعمال والانشغالات، فيكون الموت بالنسبة إليه أصعب، ويدرك في الأخير بأن طريقة موته لا معنى لها، وهنا تظهر عزلته الحقيقية، لأنه يشعر –في لحظات احتضاره– أنه لم يعد له أي معنى في نظر المحيطين به، الذين عملوا على استبعاده من الحياة وهو لازال حيا يُحتضر.

إذا كان الموت هو النهاية الحتمية للإنسان، فإن ما يبقى بعده هو ما قدمه الميت للإنسانية، وهو ما يستمر ويعيش في ذاكرة الأحياء، خصوصا وأن معرفة أسباب المرض والشيخوخة والموت

أصبحت واضحة ومعروفة اليوم، وبعدما تمت السيطرة على الجوائح الفتاكة والكوارث، الأمر الذي عدل من المشاعر العاطفية والسلوك البشري تجاه هذه الأسباب.

ثامنا: تموقع في السياق: خيبة أمل العالم

تعني "خيبة أمل العالم" تراجع التفسيرات العاطفية والخيالية على حساب عقلانية العقل البشري، بمعنى أن العقل البشري قد تغير وأصبح الأفراد أكثر عقلانية اليوم عما كان عليه الحال من قبل، والعبارة هنا قد استعملها ماكس فيبر في تحليله للمجتمع الحديث. عموما، تحيل العقلانية الإنسانية اليوم على تقدير الحاضر، وتقتضي في نفس الآن، تقدم المعرفة الموضوعية، وهي معرفة بإمكانها منح الشعور بالأمان انطلاقا من السيطرة على الحقائق، ومن تم السيطرة على الأخطار المهددة لوجود الإنسان، لتمديد التحكم في عناصر ومحددات الموت والشيخوخة، الأمر الذي رفع من مخزون المعرفة الموضوعية بالجوانب البيولوجية للشيخوخة والموت.

هذه المعرفة البيولوجية بالموت والشيخوخة، وإن مددت من متوسط عمر الإنسان، وخففت من معاناة المسنين والمحتضرين، إلا أنها لم تتمكن بعد من منع حتمية الموت، وهنا تطفو محدودية سيطرة الإنسان على الطبيعة، لأن التطور البشري تواجهه عقبتان: الأولى مجموعة القيم التي تجعل الحقائق الطبيعية والانتظام المتناسق للكون والقوانين الأبدية للسماء، والقوانين الأخلاقية الخالدة في قلوب البشر أعلى بكثير من الفضاء الذي شكله من الثقافة أو المجتمع (مرجان محمد، 2023، ص 117)، والثانية عدم قدرة الأفراد على إدراك التغيرات الطويلة المدى وغير المقصودة في الطبيعة والمجتمع (مرجان محمد، 2023، ص 121).

نستخلص مما سبق أن الكائنات البشرية تبقى الوحيدة القادرة على خلق المعنى، لأن باستطاعتها رسم الأهداف والسعي إلى تحقيقها، وإن كان الإنسان بطبعه متواكلا، يبحث دائما عن بديل له يَتَحَمَّلُ بدلا عنه عبئه ويرسم له خطوط حياته، ويحدد له أهدافه، ويعطي معنى لوجوده، أي يبحث عن معنى خارجي محدد مسبقا، على حساب المعنى الواقعي النابع من الذوات الإنسانية في تفاعلاتها، فهذا الأخير (المعنى الواقعي) -هو في الحقيقة- هو ما يعطى معنى للحياة. وهنا يعتقد الإنسان أن الطبيعة (الأمومة الوهمية) تتصرف في صالحه، على اعتبار أن المجتمع

البشري مرحلة من مراحل تطور الطبيعة، وهذا فيه خطر عليه، ثم إن قدرته على تعديل سلوكه ومشاعره، ورغبته في الخلود تضلله، فينظر للطبيعة المتخيلة على أنها أبدية، ويتهاون في تنمية حياته، والبحث عن الوسائل الكفيلة بإحكام سيطرته على مسار الطبيعة العمياء والمجتمع بأفراده.

من النماذج البارزة الدلة على إخفاق البشر في تحمل مشكلة الموت: عدم القدرة على مواجهة العوارض المرتبطة بالشيخوخة وبالاحتضار، وعدم تقبله مسألة التدهور الفيزيقي الشديد للجسم البشري الناتج عن مرض مزمن، حيث يترك المريض لنفسه، مدفوعا بالاشمئزاز من الروائح الكريهة الصادرة منه، أو المنبعثة مع بداية تحلل جسد الميت.

ونستدل هنا بحالتي وفاة لشخصيتين عالميتين:

-الأولى للفيلسوف الوجودي جون بول سارتر الذي عانى في لحظات حياته الأخيرة من الإصابة بالسلس البولي، حيث كان عليه حمل أكياسه البلاستيكية التي تفيض منها الفضلات في بعض الأحيان، فتنبعث منها روائح كريهة، فوصفته صديقته وعشيقته سيمون دي بوفوار بدقة مرعبة، بصيغة تحيل على الخوف الشديد الذي ينتابها من حالته المرضية في شيخوخته.

-الثانية لعالم النفس سيغموند فرويد الذي كان يعاني من سرطان الحنجرة، حال دون اقتراب أصدقاءه وأقاربه منه، فحتى كلبه الوفي الذي رباه ابتعد عنه، إلا ابنته التي تحلت بالشجاعة، وبقيت بجانبه إلى لحظة وفاته.

يبدو أن المواقف التي تكونت لدى الإنسان حول الشيخوخة والموت، والأكثر انتشارا هي مواقف غير قابلة للتغيير بسهولة، لأنها تكونت عبر صيرورة التنشئة الاجتماعية، ومن خلال إحجام الآباء عن فتح حوار جاد مع أطفالهم حول الموت وملابساته، بل أصبح الأطفال اليوم يترعرعون ويشبون دون أن يعايشوا لحظة زمنية فارقة بين الموت والاحتضار، ودون أن يشاهدوا جثة واحدة في حياتهم، وقد ساعد تمديد متوسط عمر الشخص في قمع فكرة الموت، أما الرعب والخوف الحاصل فمرده إلى الأمل في العيش حياة طويلة مفعمة بالمتع والملذات. ثم إن نمط العيش التي مارسه الشخص إبان حياته هو الذي يحدد الصيغة التي سيموت بها، بمعنى أن الموت يرتبط بالصورة التي كونتها الذات حول مسألة الموت.

الإنسان، اليوم، باعتقاده أنه قادر على ضبط سلوكه ومشاعره، بإمكانه تجاوز حتمية الفناء والموت، وأن نظرته إلى طبيعة الحياة المتخيلة على أنها أبدية، تدفعه إلى البحث دائما عن وسائل وآليات إحكام سيطرته على مسار هذه الطبيعة. فتمثل الإنسان حول قضايا الشيخوخة والموت والاحتضار ترتبط أشد ارتباط بالتحولات في السلوكات السوسيولوجية والسيكولوجية للفرد. وحتى تُحَققَ الجماعة البشرية اليوم معناها الحقيقي في الجوانب المتعلقة بالمَوَدَّة والعناية بالمشاعر العاطفية المتبادلة في لحظات الشيخوخة والاحتضار والموت، يلزم تعزيز الشعور بالانتماء للجماعة، من خلال الاعتراف بالمشاعر المتبادلة، ومنح التقدير والمحبة لأولئك الذين يمنحون الدعم المعنوي، والصدى العاطفي، والتهدئة الداخلية مهما كانت وضعيتهم.

قائمة المراجع:

(1) ARIÈS Philippe, «Essais sur l’histoire de la mort en occident », 1977, Paris, Editions du seuil.

(2) ARIÈS Philippe, Glaser B.G and Strauss A.L, «Time for dying », Revue française de sociologie, (Jul. -Sep. 1969). Vol. 10 No 3.

(3) DEREGNAUCOURT Jean-Pierre, « La mort au Moyen Age », 2004, Paris, Éditions G. P. Gisserot.

(4) GLASER Barney G. and STRAUSS Anselm L., “Time for dying”, 1968, Chicago.

(5) NORBERT Elias, « La Solitude des mourants, Vieillir et mourir, quelques problèmes sociologiques », traduction, Sibylle Muller et Claire Nancy, Christian Bourgeois, édition 1987.

(6) VOVELLE Micheal, « La mort et l’Occident de 1300 à nos jours », 1982, Paris.

(7) VOVELLE Micheal, « Sur la mort », 1985, Paris, in Idéologies et mentalités.

(8) شورون جاك، "الموت في الفكر الغربي"، منشورات عالم الفكر، 1984، العدد 76، الكويت، ترجمة كامل يوسف حسين.

(9) مبروك أمل، "فلسفة الموت"، الطبعة الأولى، 2010، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت.

(10)نوربير إلياس، "عزلة المحتضرين: قضايا سوسيولوجية حول الشيخوخة والموت"، طبعة 2023، منشورات الخيام، طنجة، ترجمة محمد مرجان.